القصيدة السير ذاتية
في شعر محمود درويش

✍ إعـــداد الباحثة

هياء بنت علي بن ثنيان الثنيان

عضو قسم اللغة العربية بكلية العلوم والدراسات الإنسانية بالقويعية

جامعة شقراء

ha١٠ya@windowslive.com

ملخص البحث:

القصيدة السير ذاتية في شعر محمود درويش

إعداد / هياء بنت علي بن ثنيان الثنيان

عضو قسم اللغة العربية بكلية العلوم والدراسات الإنسانية بالقويعية – جامعة شقراء

حاول هذا البحث استقصاء تشكلات **القصيدة السير ذاتية** وأبرز مظاهرها في شعر محمود درويش، وقد انتهى إلى أن **القصيدة السير ذاتية** ظهرت متناثرة على امتداد دواوينه، إذ صاغها بطريقة قصصية تعتمد على استرجاع الذكريات التي كانت لها الأثر القوي على تحولاته.

و أبرز ما يميز **القصيدة السير ذاتية** عند محمود درويش أنها منطلقة من رؤية خاصة منه تتمثل في تأمل الواقع الحياتي، وقد كان لعناوين **القصائد السير ذاتية** فعالية شديدة؛ إذ ارتبطت ارتباطًا قويًا بالقصائد حيث حملت في مضامينها الكثير من الدلالات التي ساعدت على إنتاج تفاعل بين النص والمتلقي.

الكلمات المفتاحية : **القصيدة – السير – الذاتية**

ha١٠ya@windowslive.com

Research Summary:

The autobiography of Mahmoud Darwish

Prepared / Haya bint Ali bin Thunayan Thunayan
Member of Arabic Language Department, Faculty of Science and Humanities, Al-Quwai'ya, Shaqra University

The biography poems in Mahmoud Darwish poetry

This research attempted to investigate the formation of the autobiography poems and its most prominent manifestations in the poetry of Mahmoud Darwish, It concluded that the autobiography poems appeared scattered throughout his writings, As he formulated it in a narrative way based on the retrieval of memories that had a strong impact on his transformations.

The most prominent feature of the Mahmoud Darwish's autobiography poems that it is coming from a special vision, which is represented in meditation the reality of life, Also the titles of the biography poems were extremely effective, As where it's strongly linked to the poems as they carried in their contents many Significance that helped to produce interaction between the text and the recipient.

Keywords: poem - biography - resume

ha١٠ya@windowslive.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذا بحث يرتبط بتوظيف **القصيدة السير ذاتية** في شعر محمود درويش، ويهتم بتتبع ظهورها، ومدى توظيفه لها. ونحن بالتالي نتساءل ما مفهوم القصيدة **السير ذاتية؟** وكيف ظهرت في شعر محمود درويش؟

إن التطور الذي أصاب الأجناس الأدبية وخاصة من نهاية القرن التاسع عشر جعلها تقبل التداخل فيما بينها، فأصبحت العلاقة بين الأجناس الأدبية أكثر انسجامًا و اختلاطًا.

والشعر في العصر الحديث فضاء يجد فيه الشاعر المساحة التعبيرية التي قد تعينه على إنتاج قوالب شعرية ممتزجة بالعناصر **السيرية** يستعين بها لتحقيق أغراض شكلية فنية أو مضمونية مختلفة تقودنا إلى محاولة الكشف عن خفايا إنتاجها واستجلاء حقائقها.

و**القصيدة السير ذاتية** وسيلة فاعلة في الأدب لها خاصية رحبة تفتح أمام الشاعر مجالًا ينقل بها سيرته بخبراتها وتجاربها بخطاب أدبي يتسع ليلبي بواعثه الذاتية، وغاياته الإنسانية والاجتماعية والوجدانية.

ومصطلح **القصيدة السير ذاتية** أكثر خصوصية من **السير ذاتية الشعرية** وذلك أن الأصل الذي أنتج هذا المصطلح هو تداخل جنسي السيرة والشعر، وهذا الفرع- **القصيدة السير ذاتية**- يقف على ركائز لايمكن أن يستقيم دونها وهي: (ذات+ حياتها وتجاربها الواقعية+ قصيدة بأنواعها).

وقد وصِفت **القصيدة السير ذاتية** بأنها "قول شعري ذو نزعة سردية يسجل فيه الشاعر شكلًا من أشكال سيرته الذاتية، تظهر فيه الذات الشعرية الساردة بضميرها الأول متمركزة حول محورها الأنوي، ومعبرة عن حوادثها وحكاياتها عبر أمكنة وأزمنة وتسميات لها حضورها الواقعي خارج ميدان المتخيل الشعري، وقد يتقنع الضمير الأول بضمائر أخرى حسب المتطلبات والشروط التي تحكم كل قصيدة سير ذاتية".[1]

---

١ عبيد، محمد صابر، **التشكيل النصي الشعري، السردي، السيرذاتي**، (إربد: عالم الكتب الحديث، ٢٠١٤م)، ص٢٦١.

والمتأمل في المفهوم السابق يلفته وجود بعض الشروط التي من الضرورة وجودها حيث "يشترط في اعتماد سير ذاتية القصيدة حصول اعتراف ما مدون بإشارة أو قول أو تعبير، يؤكد فيه الشاعر وعلى نحو ما المرجعيات الزمنية أو المكانية أو الشخصانية للحوادث والحكايات التي تتضمنها القصيدة، وتؤكد صلاحية الميثاق المعقود بين الشاعر السارد والمتلقي على هذا الأساس. ولا يشترط في المفهوم الشعري للقصيدة هنا الوحدة، إذ تتمركز السيرة الذاتية في قصيدة واحدة، يشترط أن تكون طويلة بحيث تعطي صورة واضحة تعكس طبيعة الترتيب التصاعدي على مستويات السرد أو الحدث أو الفضاء، أو في مجموعة قصائد تشكل مجموعة شعرية واحدة أو في أكثر من ذلك".[١]

حاول محمود درويش أن يرصد أجزاء من حياته بتفاصيلها مركزاً على ذاتيته الشخصية بواقعها ومرجعياتها المختلفة، وانتقى منها محطات صورّها في سياق كتابي أدبي تاريخي متفرق يقود بعضه بعضًا إلى رسم ملامح واقعه الذي بات

١ زبيدة، شايب الرأس، **السيرة في شعر نزار قباني**، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة المسيلة، ٢٠١١-٢٠١٢م. ص١٩.

هاجسًا يرغب في تحوله والتخلص منه، ولعلنا نقف لتتبع هذه الملامح التي شكّلت نافذة نطل من خلالها على سيرته وتجاربه الحياتية.

أولًا: الاسم: صوت الذات والصفات

صرح الشاعر/ الراوي **السير ذاتي** باسمه في جداريته من أجل تقديم ذاته وفتح النص على فضاء تعبيري ينهض بتجربته الشعرية نحو حقل تصبح فيه قصيدته ميدانًا لتجلي الكثير من واقعه وحقائقه يقول:

واسمي، وإن أخطأتُ لَفْظَ اسمي

بخمسة أَحْرُفٍ أُفُقيّةِ التكوين لي:

ميمُ/ المُتَيَّمُ والمُيتَّمُ والمتمِّمُ ما مضى

حاءُ/ الحديقةُ والحبيبةُ، حيرتانِ وحسرتان

ميمُ/ المُغَامِرُ والمُعَدُّ المُسْتَعدُّ لموته

الموعود منفيّاً، مريضَ المُشْتَهَى

واو/ الوداعُ، الوردةُ الوسطى،

ولاءٌ للولادة أَينما وُجدَتْ، وَوَعْدُ الوالدين

دال/ الدليلُ، الدربُ، دمعةُ

دارةٍ دَرَسَتْ، ودوريّ يُدَلِّلُني ويُدْميني[1]

يختزل المقطع السابق عددًا من الدلالات و التأملات، وتنعكس فيه صورة الشاعر وصفاته الشخصية وبعض تفصيلات حياته، فالمقطع السابق صفات شخصية رسمها بكلمات شعرية تفصيلية، ظهرت فيه الأنا الساردة مسيطرة منذ لحظة إعلانها وتصريحها باسمها الذي نقلنا من خلاله إلى عالمه الشخصي بوسيلة أكثر فاعلية، حيث حمّل اسمه ثنائيات متنوعة تنسجم مع نفسه وشخصيته، صاغه بطريقة تحمل في ثناياها فكراً وتجارب وصفات ملتحمة به يصرخ بها في اسمه وبصوته مؤكدًا على وجوده وهو في غمرة انكساره وضعفه، ليرتد به إلى ماضيه بأثره، وحاضره بالتقاطه جزيئات منه تصور حياته البسيطة والمليئة بالوجع والحرمان ومحاصرة الموت وأعاد صياغتها بصورة شعرية تعكس الأبعاد والصفات الإنسانية فيه.

١ درويش، محمود، **الأعمال الجديدة الكاملة**، ج١ (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٩م)، ص٥٣٤- ص٥٣٥.

ثانيًا: ولادة بائسة وطفولة دامية

تتزاحم تفاصيل ولمحات من حياة الشاعر في ذاكرته، ولعل مرحلة الطفولة من أكثر المراحل المهمة التي تبقى ذكرياتها وتفاصيل أحداثها جارية في حياة الإنسان وذاكرته، مرحلة الطفولة تشكل أولى نقاط التحول الحقيقية في حياة محمود درويش فقد بدأت معها وفيها التحولات القاسية والأزمات المؤلمة وقد وصفَ طفولته بالدامية، حيث قُتِلت في مراحل مبكرة نتيجة حرب واعتداء وحشي، استيقظ في عام ١٩٤٨م وهو في السادسة من عمره على صوت صرخة أرض فلسطين، وصيحات شعبها فقد وطأت أقدام الاحتلال الإسرائيلي أرضهم معلنة عدوانها وحربها عليهم يقول:

وأنسى في طفولتها عذاب طفولتي الدامي[١].

ونتيجة مرور الشاعر بحالات من النفي والغربة والخوف والموت الذي بات يحاصره رسم في ذاكرته صورة مأساوية لطفولته التي لا يرغب بتذكرها، فقد خلفت له لحظات من العناء والألم في ذاكرته وذكرياته تاركة في نفسه أثرًا يدفعه إلى محاولة عدم الارتداد لهذا الطور من حياته يقول:

---

١ درويش، محمود، **الديوان الأعمال الأولى**، ج١، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٥م)، ص١٠٩.

لا أحب طفولتي والذكريات[1]

وقد تجلت المحطة الأولى من سيرة الشاعر في شعره حينما صرح بزمن ميلاده،حيث ولد في شهر آذار سنة ١٩٤١م في قرية البروة التي تقع قريبًا من عكا، يقول:

سيلسعُني وَرْدُ آذارَ، حيث وُلدتُ

لأوّل مَرّةْ[2].

ترتد الذات وذاكرتها إلى الماضي والمستقبل لتوضح سطوة الزمان في صراعه مع الذاكرة عليها إذ يعد الجزء الأساس من سيرتها، فإحساس محمود درويش ووعيه بالزمان باعتباره ركنًا من أركان سيرته أصبح باعثًا له على السعي للضبط والتدقيق في تصوير أهم الأحداث والتحولات والتجارب التي شهدها هذا الزمان. وقد صوّر أحداث ولادته بقوله:

---

١ درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ط١، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٩م)، ص٦٠.

٢ درويش، محمود، **الأعمال الجديدة الكاملة**، ج٢، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٩)، ص٢٩٣.

...كان المكانُ مُعَدّاً لِمَوْلِدِهِ: تلَّةً

من رياحين أَجدادِه تَتَلَفَّتُ شرقاً وغرباً.وزيتونةً

قُرْبَ زيتونةٍ في المَصَاحف تُعْلي سُطُوحَ اللُغَةْ...

ودخاناً من اللازَوَرْدِ يُؤَثِّثُ هذا النهارَ لمسْأَلةٍ

لا تخصُّ سوى الله. آذارُ طفلٌ

الشهور المُدَلَّلُ. آذارُ يندفُ قطناً على شَجَر

اللّوْز. آذارُ يُولِمُ خُبّيزةً لِفناء الكنيسةِ.

آذارُ أرضٌ لِلَيْلِ السُنُونو، ولامرأةٍ

تَسْتَعدُّ لصرخَتها في البراري... وتمتدُّ في

شَجَر السنديانْ.[1]

١ درويش، محمود، **الأعمال الجديدة الكاملة**، ج١، لماذا تركت الحصان وحيدا، ص٢٨٥- ص٢٨٦.

ينفتح المقطع السابق انفتاحًا دقيقًا على مشهد **سير ذاتي (زمكاني)**[1] يجمع فيه الشاعر بين زمان ومكان يرتبطان ارتباطًا قويًا بسيرته وذاكرته، وفي حياة هذا المكان يعتبر الزمان مفصلًا تاريخيًا فيه وفي حياة الشاعر/الراوي **السير ذاتي**، فجعل العلاقة بين الزمان والمكان مع الأحداث في سيرته متبادلة إذ يختزلان شحنات دلالية ورمزية وإيحائية ترتبط ارتباطًا قويًا بحياته، ليعكس من خلال توظيفه لهما عن وعيه بما يحققانه من حيوية وقيم إضافية تساهم في توثيق سيرته، ونشر تجربته الحياتية، ومدى تأثير ذلك على المتلقي وفاعليته، منذ انطلاق نصه من عتبة المكان الواقعي والزمان الحقيقي ليشكل بهما حكايته مستندًا على رؤية إبداعية، وصناعة فضاء تخييلي له حضوره وارتباطه في حياته وشعره.

---

١ الزمكانية Chronotope (الزمان والمكان): أحد مفاهيم ميخائيل باختين المعقدة وتعني حرفيا "الزمان والمكان" لأنها مركبة على التوالي من المفردتين معا، وهو مصطلح مقتبس من علم الأحياء الرياضي حيث يصف "الشكل" الذي يجمع معا الزمان والمكان، وباختن في تبنيه المصطلح قد ربط سيولة العلاقة الزمانية والمكانية في (نظرية آنيشتاين النسبية بالنقد الأدبي والتي ترى أن الفصل بين الفعل والزمن أمر محال، لأن الزمن هو البعد الرابع للمكان. ينظر، الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد، **دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا**، ط٥ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م) ص١٧٠.

ثالثًا: المكان هوية وجزء من تجارب إنسانية

تمثل قصيدة (**طللية البروة**) موضعًا من مواضع مراحل سيرة الشاعر التي يقف على إطلالها، فالقصيدة من عنوانها تحمل لفظة تصريحية ودلالية بالارتباط المكاني الذي لاشك يرمز إلى أن الشاعر/ الراوي **السير ذاتي** قد عاش تجربة أو طورًا من حياته فيها لينقلنا به إلى عالم لا حدود له، يقول:

يا صاحبي قفا..لنختبر المكان على

طريقتنا: هنا وقعت سماءٌ ما على

حجر وأدمته لتبزغ في الربيع شقائق

النعمان... (أين الآن أغنيتي؟) هنا

كسر الغزال زجاج نافذتي لأتبعه

إلى الوادي (فأين الآن أغنيتي؟) هنا

حملت فراشات الصباح الساحرات طريق

مدرستي (فأين الآن أغنيتي؟)

هنا هيأت للطيران نحو كواكبي فرسا

فأين الآن أغنيتي؟[1]

---

١ درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ص٦٤.

عكس المقطع السابق طبيعة العلاقة بين سيرة محمود درويش والمكان (البروة) تلك العلاقة المتماسكة والقوية التي ترتبط ارتباطًا وشيجًا بينه وبين طفولته وتجاربه فيها، ذلك المكان الذي يعتبر جزءًا من سيرته لأنه حقيقي وغير مصطنع، وهو الجسر المتين بين أحداث طفولة الشاعر، و وقعها الشديد في نفسه.

لأن المكان "سيظل ذاكرة موضوعية تتكامل مع ذاكرة الذات الكاتبة إلى درجة التمازج"[١] فإن الشاعر/ الراوي **السير ذاتي** استطاع أن يشحن فضاء المكان بالكثير من الذكريات والتجارب الحياتية الطفولية التي يحتدم فيها زمن هذه الأحداث والتجارب مع مكانها ليخلق مسرحًا تحتفظ ذاكرته بأحداثه ليجعله متنفسًا يختزل فيه أجزاء حية من تجاربه.

وتكراره لاسم الإشارة مع الفعل الماضي (هنا وقعت، هنا كسر، هنا حملت، هنا هيأت) شكلت مشهدًا لحالة من **الاسترجاع** تلتقط فيها ذاته صورًا من حياته الماضية التي تنتهي بالاستفهام يبحث من خلاله عن عودة موطنه ومسقط رأسه الذي يؤكد أثره في نفسه من خلال استجابة نفسه

١ وفكوح، عبدالفتاح، **أدب السيرة الذاتية إضاءات وإضافات**، (عمّان: دار فضاءات، ٢٠١٦م) ص٦٤.

وذاكرته الاستجابة القوية والبليغة ليحقق مشاركته الوجدانية والنفسية للشعور المسيطر عليه مع المتلقي من ماضٍ متحول إلى حاضر متقلب.

رابعًا: لعبة التسلية تجارب حياتية وذاكرة تاريخية

كشفت قصيدة (**لاعب نرد**) إلقاء الشاعر نفسه في إطار **القصيدة السير ذاتية** بكل ماتختزنه من ذاتية حيث برز "تكرار الشاعر لسؤال الذات المقرون بالوقوف على فلسفة الوجود ومعناه من خلال التكثيف الفني لتوظيف أنا الشاعر".[١]، ولعل البداية تتمثل في عنوان القصيدة (**لاعب النرد**) فمحمود درويش كانت" تسليته في لعب النرد (طاولة الزهر) التي ينهمك في أجوائها، يصرخ أحيانًا، ويغتاظ أحيانًا أخرى مثل أي طفل".[٢]

جسّد محمود درويش في القصيدة صفاته وسيرة حياته بأبعادها المتنوعة وتجاربها المتباينة، لتنفتح القصيدة على حياته بمجرياتها المختلفة التي في غالبها

---

١ الرحاحلة، أحمد، **تجليات الشعرية عند محمود درويش دراسة أسلوبية في الديوان الأخير**، (عمان: دار فضاءات، ٢٠١٦م) ص٢٠٧.

٢ سيرة الشاعر محمود درويش، **مؤسسة ومتحف محمود درويش**، رابط الموقع على شبكة الإنترنت، http://clients.intertech.ps/darwish/article/٦٤٥/

معتمدة على الحظ والصدفة ليؤكد بأن الإنسان لا يملك الاختيار والقرار في كافة شؤون حياته يقول:

وُلدتُ بلا زَفّةٍ وبلا قابلةْ

وسُمِّيتُ باسمي مُصَادَفَةً

وانتميتُ إلى عائلةْ

مصادفَةً[1]

يحكي محمود درويش قصة ولادته التي أشعرنا بأن لحظاتها كلها حدثت صدفة، بداية مع لحظات الولادة التي لم يتم فيها زفة ولا استقبال، ولم تكن هناك (قابلة) تساعد والدته أثناء ولادتها وهذه الإشارة بأن الولادة حدثت فجأة ودون أي إعداد مسبق، واسمه وعائلته التي ينتمي إليها أيضا صدفة وهذا المقطع يُظهر بوضوح إحساس الشاعر **بالاغتراب النفسي** وعدم الانتماء لاسمه وعائلته الذي جاء نتيجة ظروف اجتماعية وسياسية ونفسية صعبة، ثم يكمل صفات وملامح ورثها من هذه العائلة بقوله:

وَرِثْتُ ملامحها والصفاتْ

---

[1] درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ص٢١.

وأَمراضها:

أَولاً_ خَلَلًا في شراييِنها

وضغطَ دمٍ مرتفعْ

ثانيًا_ خجلًا في مخاطبة الأمِّ والأَبِ

والجدَّة الشجرةْ

ثالثًا_ أَملًا في الشفاء من الإنفلونزا

بفنجان بابونج ساخن

رابعًا_ كسلًا في الحديث عن الظبي والقُبَّرة

خامسًا_ مللًا في ليالي الشتاءْ

سادسًا_ فشلًا فادحًا في الغناءْ ...

ليس لي أَيُّ دورٍ بما كنتُ

كانت مصادفةً أَن أكونْ

ذَكَراً ...[1]

---

[1] درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ص٢١- ص٢٢.

رسم الشاعر في المقطع السابق تفاصيل ودقائق شخصية ورثها، بداية بالملامح والصفات ووصولًا إلى الأمراض، وكسبت قصيدته **السير ذاتية** جمالها منذ لحظة إعلانه أمورًا تتعلق بعنصري الوراثة والبيئة التي كان لها الدور الرئيس في تكوين شخصيته ليؤكد على أنها وخاصة "البيئية" من أسباب التحول النفسي والفكري عنده. ثم يكمل ليبدأ بذكر بعض التجارب والأحداث التي تعرض لها في حياته يقول:

كانت مصادفة أَن أكون

أنا الحيّ في حادث الباصِ

حيث تأخَّرْتُ عن رحلتي المدرسيّة

لأني نسيتُ الوجود وأَحواله

عندما كنت أَقرأ في الليل قصَّةَ حُبٍّ

تَقمَّصْتُ دور المؤلف فيها

ودورَ الحبيب– الضحيَّة

فكنتُ شهيد الهوى في الروايةِ

والحيَّ في حادث السيرِ/.[1]

الأفعال الماضية التي استخدمها الشاعر في المقطع أعلاه (كانت، تأخرتُ، نسيتُ، تقمصتُ) تكشف عن حالة **الاسترجاع** لحدث في زمن ماضٍ مؤلم كان له الأثر البالغ على نفسيته عكس فيه مدى الارتباط بين الحدث ودلالته (الصدفة) التي ركز عليها.

نجوتُ مصادفةً: كُنْتُ أَصغرَ من هَدَف عسكريّ

وأكبرَ من نحلة تتنقل بين زهور السياجْ

وخفتُ كثيراً على إخوتي وأَبي

وخفتُ على زَمَن من زجاجْ

وخفتُ على قطتي وعلي أَرنبي

وعلى قمر ساحر فوق مئذنة المسجد العاليةْ

وخفت على عِنَبِ الداليةْ

يتدلّي كأثداء كلبتنا ...

---

١ درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ص٢٢- ص٢٣.

ومشي الخوفُ بي ومشيت بهِ

حافيًا، ناسيًا ذكرياتي الصغيرة عما أُريدُ

من الغد– لا وقت للغد–[1]

نقلنا محمود درويش في النص السابق إلى مساحة واسعة لتصوير زاوية من حياته المأساوية و واقعه المؤلم، وذاكرته التي تضج بتذكر أحداث وتصويرها، فقدم عملاً تخييليًا متكئًا على تذكر وتداعٍ وربط بين الحدث وعناصره مما جعل الحدث والشخصية كأنهما ماثلان أمامنا، كما تمكن الشاعر بسرده أن يحكي الحدث بواقعية لم تخل من التخييل الذي حوّل الحدث إلى مشاهد نابضة بالحركة وعاكسة للقلق والخوف والهموم الفكرية.

لم يكتف الشاعر محمود درويش بذكر الأحداث ومجرياتها فقط، إنما ناغم أحداثه بمكان وزمان وصفات لتكون الذات واصفة وموصوفة في آن واحد لتشرع الأنا من جديد في الاستفهام عن ماهيتها وحياتها التي تدعي الذاكرة بمخزونها لترتد ذاكرته إلى حدث ماضٍ كانت النجاة منه صدفة طرفًا مؤثرًا عليه، يقول:

---

١ درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ص٢٤.

كان يمكن أَلاَّ أكون أَنا مَنْ أَنا

كان يمكن أَلاَّ أكون هنا ...

كان يمكن أَن تسقط الطائرةْ

بي صباحاً،

ومن حسن حظّيَ أَني نَؤُوم الضحى

فتأخَّرْتُ عن موعد الطائرةْ

كان يمكن أَلاَّ أرى الشام والقاهرةْ

ولا متحف اللوفر، والمدن الساحرةْ[1]

يكتنز المقطع بوصف رحلة حياة الشاعر البائسة التي جاب البلدان مغتربًا منفيًا[2]، لتصبح هذه الرحلات جزءا من حياته وتاريخه، وشعوره بآثارها وأبعادها يتنامى مع تقدم الزمن ليصبح هاجسًا ملازمًا لذاته.

---

١ درويش، محمود، **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي** ، ص٣٤.

٢ خرج درويش طفلًا بعد نكبة وطنه إلى لبنان عام ١٩٤٧م وعاد متسللًا مع عمه بعد توقيع اتفاقية الهدنة بين لبنان والكيان الصهيوني في ١٩٤٩م، وبعد ذلك ازداد=

وصف محمود درويش رحلته إلى القاهرة وهي المحطة الثانية التي لجأ إليها بعد نفيه عن فلسطين تحدث عن أثر هذه الرحلة في حياته وأثرها على نفسه وعلى صعيد تجربته الشعرية يقول "في القاهرة تمّت ملامح تحوّل في تجربتي الشعرية وكأن منعطفًا جديدًا يبدأ".[١]

أما باريس فقد عاش فيها نحو عشر سنوات ولكن في شكل متقطع، إذ كان يسافر باستمرار. وبقي قريباً من منظمة التحرير في تونس وقد وصف إقامته في باريس بأنها محطة ولد فيها شعريا.[٢]

= نشاطه الفكري والسياسي فاعتقل خمس مرات من السلطات الإسرائيلية، وبعد تضييق الخناق عليه من السلطة الإسرائيلية قرر الخروج إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٠م، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة، ومن عام ١٩٧٢م حتى ١٩٨٢م أصبحت بيروت المستقر الجديد وعاش مع رجال المقاومة أثناء حصار الجيش الإسرائيلي لبيروت عام ١٩٨٢م حتى غادرها إلى باريس ثم تونس ثم باريس ليستقر فيها أطول فترة. ينظر، السعافين، أحمد، **المرأة في قلب محمود درويش: جماليات نصوص الحب**، من ص٨٣- ص٨٨.

١ سيرة الشاعر محمود درويش، **مؤسسة ومتحف محمود درويش**، رابط الموقع على شبكة الإنترنت http://mahmouddarwish.ps/article/٦٤٥

٢ سيرة الشاعر محمود درويش، **مؤسسة ومتحف محمود درويش**، رابط الموقع على شبكة الإنترنت http://mahmouddarwish.ps/article/٦٤٥

خامسًا: أسرة فقيرة وشخصيات مؤثرة

صوّر محمود درويش رحلة أبيه الكفاحية المضنية من أجل البحث عن لقمة العيش وتوفير المأوى، ليصور حالة البؤس التي يعانيها منذ طفولته ويطارده في أطوار حياته إذ كان خلفه اعتداء إسرائيلي ظالم يقول في قصيدته (**بطاقة هوية**):

سجل

أنا عربي

و أعمل مع رفاق الكدح في محجر

و أطفالي ثمانية

أسلُّ لهم رغيف الخبز،

و الأثواب و الدفتر

من الصخر..

و لا أتوسل الصدقات من بابك

و لا أصغر

أمام بلاط أعتابك

فهل تغضب[1]

تبدو الصورة هي الصورة الحقيقية لأسرة محمود درويش، حيث تتكون أسرته من خمسة أبناء وثلاث بنات، والشاعر قدم صورة أبيه خاصة متناغمة مع الأب الفلسطيني عامة، فهذه الأوضاع التي تعيشها أسرته يعيشها كافة الآباء في فلسطين، والتأمل في النص الوارد يكشف عن حالة العوز والبؤس التي تعيشها أسرته ومع هذا تبقى الكرامة فوق كل الظروف.

و رسم محمود درويش في المقطع السابق ملامح شخصية الفلسطيني عامة وأبيه خاصة، إذ العمل والكد والانتماء للطبقة العاملة هو ما يميزه، ويجعله فخورًا بهذا الانتماء، وتأخذ بعض الألفاظ أبعادًا رمزية؛ فالخبز في المقطع رمز المحافظة على الشرف والأنفة والإصرار على الحق، وهذه الطبقة الكادحة الفقيرة لا تنحني ولا تضعف أمام قرارات الحكومة الإسرائيلية التعسفية الناضحة بالعنصرية المقيتة، التي تتعارض مع كل القيم الإنسانية العالمية، معبرًا عن هذا الموقف بالتعبير الساخر "أمام بلاط أعتابك"، موحيًا

[1] درويش، محمود، **الديوان الأعمال الأولى**، ج١، أوراق الزيتون، ص٨٠- ص٨١.

بهذا التعبير عن رفضه للذل والاستضعاف والاستكانة.[١] ويكمل في ذات القصيدة يقول:

أبي... من أسرة المحراث

لا من سادة نجب

وجدي كان فلاحًا

بلا حسب.. و لا نسب

يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب

و بيتي، كوخ ناطور

من الأعواد و القصب

فهل ترضيك منزلتي[٢]

---

١ ينظر، محمد، فراس حج، "الصورة الشعرية في سجل أنا عربي"، **مؤسسة فلسطين للثقافة**، ٢٠١١م، على الرابط https://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?itemid=٦٠١٩

٢ درويش، محمود، **الديوان الأعمال الأولى**، ج١، أوراق الزيتون، ص٨١- ص٨٢.

قدّم محمود درويش في النص السابق وصفًا تصويريًا لنسبه وتفاصيل من حياته تجذب المتلقي، ليتضح أن هناك جملة من الأمور والمظاهر المتعلقة بنسبه وحياته لها الأثر الفعال في تكوين شخصيته، البداية مع التصريح بالبيئة التي عاش فيها وهي بيئة ريفية، وعمل أبيه وجده في الفلاحة والحراثة، ثم الحرص على الحرية أكثر من قراءة الكتب، وصورة البيت الذي صنع من الأعواد والقصب، ليتضح لنا إلقاء محمود درويش الضوء على المرجعيات الاجتماعية والمهنية التي ساعدت على إبراز أهم عناصر تشكيل سيرته الذاتية.

الخاتمة

بفضل الله أتممنا هذا البحث الذي خصصناه **للقصيدة السير ذاتية** في شعر محمود درويش، و اتضح لنا جملة من الأمور يمكن أن نجملها في الآتي:

- من يتأمل شعر محمود درويش يجد أن **القصيدة السير ذاتية** ظهرت في ثنايا شعره، وهي بلا شك نتيجة عوامل مختلفة كتبها تحت وطأة الاعتداء والنفي والتغريب...إلخ الذي وصل بذاته إلى ذروة الإحساس والانفعال لتظهر حقيقة حياتها، وتكشف عن وجودها.

- لعل أكثر ما يميز **القصيدة السير ذاتية** عند محمود درويش أنها ظلت خاضعة للذات الجماعية ولم تنفسخ عنها فقد خلق لها عالماً ملتصقًا أشد الالتصاق بالقضايا الإنسانية عامة والفلسطينية خاصة.

- جعل محمود درويش **القصيدة السير ذاتية** فضاء للإفصاح عن مكنونات نفسه تجول فيه بواقعية، و لوّن هذا الفضاء بشخصيته

ورؤيته التي حققت لتجربته الشعرية القدرة على تلبية حاجاته الوجدانية والجمالية.

- كان مدار اهتمام محمود درويش في **القصيدة السير ذاتية** تحقيق الذات وإثبات الهوية.

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر:

درويش، محمود

- **الديوان**، الأعمال الأولى، ج١، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٥م).
- **الأعمال الجديدة الكاملة**، ج١، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٩م).
- **الأعمال الجديدة الكاملة**، ج٢، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٩).
- **لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي**، ط١، (بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٩م).

ثانيًا: المراجع:

- الرحاحلة، أحمد زهير، **تجليات الشعرية عند محمود درويش: دراسة أسلوبية في الديوان الأخير** (عمان: دار فضاءات،٢٠١٦م).
- الرويلي، ميجان، البازعي، سعد، **دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحا نقديًا معاصرًا**، ط٥ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧).
- زبيدة، شايب الرأس، **السيرة الذاتية في شعر نزار قباني**، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة المسيلة، ٢٠١١-٢٠١٢م.
- السعافين، إسماعيل، **المرأة في قلب محمود درويش: جماليات نصوص الحب** (الأردن: دار فضاءات للنشر، ٢٠١٥م).
- عبيد، محمد صابر، **التشكيل النصي الشعري، السردي، السيرذاتي**، (إربد: عالم الكتب الحديث، ٢٠١٤م).
- وفكوح، عبدالفتاح ، **أدب السيرة الذاتية إضاءات وإضافات**، (عمّان: دار فضاءات، ٢٠١٦م).

مراجع المقالات النقدية على شبكة الإنترنت

- سيرة الشاعر محمود درويش، **مؤسسة ومتحف محمود درويش**، على الموقع٦٤/mahmouddarwish.ps/article.
- محمد، فراس حج، "الصورة الشعرية في سجل أنا عربي"، **مؤسسة فلسطين للثقافة**، ٢٠١١م، https://www.thaqafa.org/site/pages/details.asp x?itemid=٦٠١٩